مضمون الخطاب النثري العربي القديم/ الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

فن للنادرة

– **حد النادرة**: النادرة لغة من نوادر الأشياء أي التي يقل وجودها أو حدوثها ونوادر المعادن نفائسها ونوادر الكلام ما شذ وخرج عن الجمهور لظهوره، والنادر جمع نوادر الوحيد والمتفرد المتميز عن غيره، وكل هذه المعاني تعني الخروج عن المألوف والغرابة المقترنة ببراعة التأليف [1]. فلا يفيد معنى الشذوذ في النادرة الخروج فحسب بل يعني أيضا القليل الثمين لتفرقه، ومنه سميت كتب تراثية كثيرة بالنوادر لقلة دورانها على الألسن مثل نوادر القالي ونوادر أبي زيد الأنصاري... [2]

تدور في فلك النادرة مصطلحات قريبة منها وليست هي، منها الملحة والطرفة والنكتة والمجنة والفكاهة والدعابة والمزاح والهزل والمزاح... فالضحك مثلا مرتبط بالمتلق ومدى استجابته لما يقال، والظرف مرتبط بالنادرة، والملحة مرتبطة بالحجم فهي أقصر من النادرة ودونها حجما، والمجنة ترتبط بأسلوب العرض وموضوعه [3]. والنوادر مواقف هزلية أو نقدية ساخرة رويت بأساليب خاصة جعلتها أكثر إضحاكا ومتعة وتأثيرا فيها من الهزل والتهكم والهزء والنكتة وحسن الرد والسخرية والنقد... وهي شكل من أشكال السرد العربي القديم يقوم على أخبار قصيرة أو متوسطة الطول، تجمع بين الجد والهزل وأحيانا تتخذ محض الهزل لغايات بلاغية وإبلاغية يتوخاها الكاتب، ولا يكفي الهزل وحده والإضحاك لجعلها أدبية لأنها تصبح مجرد أحاديث وأشتات كلام، فشرط النادرة ومقومها الأساسي هو عنصر القصصية أو السردية، و أسلوبها وطريقة عرضها هي التي تمنحها خاصية التندر وليس غرابة الأفعال والأقوال وشذوذ التفكير، وإن كانت كلها عناصر مكملة، وبيت القصيد إنما يكمن في إحكام البناء، فأسلوب النادرة هو الذي يجعلها كما يقول الجاحظ "مليحة حارة ممتعة [4].

والنادرة هي هزل المقال، والحقيقة أن الهزل هو مطيتها إلى الجد ووسيلتها في إبلاغه، فكثيرا ما أعيدت صياغة القضايا الكبرى والحساسة في الثقافة والمجتمع العربي صياغة شعبية فكاهية ضاحكة لرفع الحرج ودفع الخطر والقدرة على مناقشة كل المحضورات الدينية والسياسية والإجتماعية أو فضحها وكشف عيوبها، وقد ناقشت النادرة خاصة في العصر العباسي جل القضايا السياسية الممنوعة والاجتماعية المهمشة ونقلت أشد المسائل تعقيدا إلى حيز البساطة والعفوية وأجواء الحرية والمرح، فاحتاجت أن تؤسس لها بلاغة خاصة موازية لبلاغة الجد الرسمية المعترف بها.

بلاغة الهزل: الكلام بلاغتان، بلاغة الجد التي نجدها في الفنون الأدبية الرسمية كالخطابة والترسل..، وبلاغة أخرى موازية لها لازمت باب الهزل وربما اتخذته وسيلة توصيل ونفاذ إلى المتلقي، وربما كانت النادرة إحدى صورها، فهي شكل من أشكال السرد العربي القديم ظاهره هزل وباطنه جد، أما بلاغة الجد فهي بلاغة تعليم وتعلم وتربية وتهذيب، وقد استجابت كتب الأدب والنقد القديم لهذا الغرض، فوضعت أبواب غاية في الدقة لتنظيم هذا الجانب من الأدب (الشعر/ الخطابة/ الأمثال/ الحكم والوصايا...)، بينما أغفل ما دار في فلك الهزل لأسباب اجتماعية خاصة ودينية فلم ينظر له ولم يحظ بالشرح والتحليل بما في ذلك المقامات نفسها، فـ"ليست بلاغة الهزل كبلاغة الجد، إذ هي إلى السرور تقصد، وإلى الضحك واللهو تهدف، غرضها دفع الملالة عن القارىء والسآمة عن السامع، ولذلك حشيت أبواب الهزل بنصوص النوادر والملح والبطالات والطرف والسخافات وظريف العلل وغريب الاحتجاجات وعجيب الحيل"[5]. غالبا ما تقوم هذه النصوص على العجب والتعجيب، "فصار العجب

أدخل في بلاغة الهزل منه في بلاغة الجد، وأضحى التعجيب سبيلا إلى الضحك والسرور"[6]. فقد لازمت صفة الغرابة جل أشكال الهزل خاصة النوادر منها، يقول الجاحظ في مقدمة كتابه البخلاء: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعقب حيلة لطيفة، استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد"[7]، مما يجعل بلاغة الهزل تصدر عن تصور مغاير لما صدرت عنه بلاغة الجد [8].

حظ النادرة في النقد القديم: ارتبط الأدب في التراث النقدي العربي القديم بطابع رسمي يعترف بالفنون الأدبية الرسمية الشعر وبعض الفنون النثرية كالخطابة والرسائل، ويغض الطرف عن أخرى ، فلئن فرضت النادرة وجودها كنص إبداعي فإنها لم تنل حظها من تنظير النقاد واهتمامهم عدا ملاحظات الجاحظ المتفرقة، لأن معايير البلاغة قامت على تصورات تفرض الجد والإجادة، مما ساهم في تهميش كثير من الفنون الأدبية وإقصائها من فعل النقد والتنظير وإن وجدت نصوصها كالمقامات والقصص والنوادر، سبق وأشرنا إلى الموقف من القص في محاضرات سابقة، ولا يختلف الأمر في النادرة التي ارتبطت من جهة بالهزل وركزت على الشخصيات الشاذة كالمغفلين والحمقى، وجاءت لغاية ظاهرة واضحة هي الإضحاك والتسلية، مما يجعل تداولها محفوفا بالباطل والبعد عن الحق وشغل الناس عن الدين[9]، ومن جهة أخرى ارتباطها بالثالوث المحرم (الدين والسلطة والجنس) ، والحق أن التغافل عن ذكر النوادر وتصنيفها ضمن الأجناس الأدبية المعترف بها والبحث في علاقتها بها ووضع ضوابط وشروط فنية تؤطرها، لم يكن لهذه الأسباب الأخلاقية وانتهاك بعض النواد للآداب وتعاليم الدين فحسب، "وإنما للإقصاء والتهميش مبررات سياسية متمثلة في قدرة هذا الجنس الأدبي على اختراق المحظور، والعبث بتعاليم النظام العام، هذا إضافة إلى لغة بعض النوادر وصورتها البسيطة المخالفة للمعايير البلاغية والنقدية الفخمة "[10]، فيصبح ضعف أدبية هذا الجنس سببا آخر في إقصائه، ولكن ليست كل النوادر كذلك فقد أدت بامتياز واقتدار المراد وأبلغت رسائل كتابها المعلنة والمضمرة وحققت المتعة الفنية المرجوة في جل نماذجها.

– قواعد النادرة وشروطها: تحتاج النادرة إلى قواعد وأسس تكفل استمراريتها وحيويتها وكذلك تأثيرها ونجاحها أهمها:

1– مبدأ الإيجاز أو الإقتصاد اللغوي: يلخصه قول الجاحظ: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه" لأن النفس إلى قصار الأحاديث أميل [11]. فقد انبنت جل أشكال الهزل على الإيجاز، والعرب ينفرون من الإسراف في المزاح إلا بقدر ما يجدد الهمة ويزكي النشاط، يقولون: الإسراف في المزاح مجون والاقتصاد فيه ظرف والتقصير فيه ندم.

2– قاعدة الاسم: تنسب جل النوادر إلى علم من الأعلام المشهورين وتضاف إلى أسماء معروفة بالإفراط في صفة من الصفات، فقد بين الجاحظ في مقدمة البخلاء ما لاسم العلم من تأثير في متلقي النادرة وتهيئته للضحك، وما يضفيه على النادرة من حرارة وبرودة، يقول: "لو أن رجلا ألزق نادرة بأبي الحارث جمين والهيثم بن مطهر وبمزيد وابن أحمر، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد"[12].

3– الحوارية: النوادر **أقوال خطابية حوارية تتطلب مشاركة متخاطبين**، فكأنها أقرب إلى الحدث القصصي أو اللقطة المسرحية البسيطة، تجري في فضاءات اجتماعية شتى دون قيد أو ضابط أو نظام، لذلك عدت خارجة عن السياق المألوف، ومرد هذا

الشذوذ إلى انعدام أسباب التواصل أو انقطاع امكانات الفهم، فتصبح أقصى غاياتها سوء الفهم وسوء الإفهام وما ينتجانه من أجواء التعجب والاندهاش وحالات التأويل.

4- توفر مقومات القص: من أحداث وشخصيات وأمكنة وأزمنة وتوزيع أنماط الخطاب من وصف وسرد وحوار توزيعا خاصا يميزها، وغالبا ما تعتمد الشخصيات الحوار الحجاجي وتكثيف الحجج في دعم قضية بسيطة أو تافهة مما ينتج مفارقة ويبعث على الإضحاك.

5- قاعدة اللغة: تجمع كتب التراث وتصر على نقل نص النادرة كما هو دون تبديل حفاظا على جانب الهزل فيها، ولتحقيق ذلك في النادرة أكدوا على مجموعة من الشروط في بنائها أهمها:

- تجنب التكنية وذلك باعتماد الأسلوب الصريح وتسمية الأشياء بمسمياتها، لأن الكناية تذهب بحرارة النادرة وحلاوتها، فكثيرا ما تلفت إليها النظر بألفاظ السخف والفحش السخر.

- اختراق سنن التخاطب وآدابه وتجنب الإعراب في مواطن اللحن لأن هزل المقال لا يكون إلا بالكلام وفي الكلام لأن بنية القول فيه ترتبت وانتظمت على هيئة لا تحترم أصول الحوار ومقتضياته، كأن يجنح المتكلم إلى الخطأ في الجواب، قيل لأحدهم وقد أصابته مصيبة عظم الله أجركم، فقال: سمع الله لمن حمده[13].فهي تنبني قصدا على الخطأ واللبس وتنهض عمدا وإصرارا على سوء الإفهام وإساءة الفهم.

- توسل القاموس اللغوي للنوادر بألفاظ السخف والرقاعة والإحماض والمجون ومعاني الفكاهة والمزح والسخرية والسماجة وأعراض الوسوسة والتجان والتحامق والتعابث، حتى لا تخرج النادرة عن رسم الهزل وأدبياته.

-ومن ذلك أيضا **سلوكها جميع العيوب التي تصيب البلاغة والفصاحة** "لأن الهزل هو استرخاء الكلام وتهلهله وذهاب الفحولة عنه، فطبقات القول عند أستاذ النادرة تنظيرا وممارسة إبداعية الجاحظ: "القول الجزل، السخيف، المليح، الحسن، القبيح، السميح، الخفيف، الثقيل، وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا"[14].

6- الحيل في الكلام: عن المدائني أن رجلا لقي آخر ومعه كلبان، فقال له: هب لي أحدهما،فقال: أيهما تريد فإن الأسود أحب إلي من الأبيض، قال: فهب لي الأبيض، فقال: الأبيض أحب إلي من كليهما[15]. وقريب منه المناقضة في الخبر، قيل لبعض أهل الموصل: كم بينكم وبين موضع كذا، فقال: ثلاثة أميال ذهب.

7- شرط الهزلية: هو شرط قد يتحقق بطبيعة الحدث نفسه متى كان شاذا غريبا يبعث على الإضحاك، وقد تنشئه سياقات لغوية وتعبيرات خاصة مثل التكرار وسوء التفاهم والأسئلة المفاجئة للخطاب السابق، والنكتة المبنية على الجناس أو المفارقة والمحاكاة الساخرة... [16]

8- مبدأ تناسب الألفاظ مع الأغراض: فلكل نوع من المعاني ما يناسبه من الأسماء، فالسخيف للسخيف والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال، يقول الجاحظ: "وإن كان في لفظة سخف وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها"[17].

بنيـة النـادرة: في بنية النادرة ومكوناتها ما يعصمها من التداخل مع هزل المقال وكل صنوف الهزل الأخرى، فهي نص سردي يتعالق فيه مكونان أساسيان ويتكاملان هما السرد والهزل، إذ هي جنس أدبي يتجسد فيه الهزل سرديا، ويرتبط هذان المكونان

الأساسيان غالبا بسمات كالغرابة والطرافة والمفارقة والشذوذ، كما يرتبطان بعناصر أخرى متغيرة وغير ثابتة تحضر في نصوص وتختفي في أخرى كالحيل واللعب اللغوي والمحاكاة الساخرة وغيرها [18].

لأن النادرة نص سردي فقد تجلت فيها جل عناصر البناء القصصي وأساليبه من تشويق وحوار ودقة وصف وتصوير وعمق في التحليل النفسي للشخصيات وسبر أغوارها، والتي نجملها في العناصر الآتية:

1- التصوير الواقعي الدقيق للشخصيات والحوادث تصويرا مشهديا كاريكاتوريا غالبا [19].

2- الحوار الذي غالبا ما يكشف عن أحوال الشخصيات ودواخلها وأخلاقها ومستوياتها الاجتماعية والثقافية واللغوي، والوصف الذي يريح المتلقي من الحوار والسرد، وعادة ما تتناوب هذه الأساليب.

3- الشخصيات الواقعية والتخييلية المحورية منها والثانوية، فكأننا أمام نص قصصي تتصارع في الشخصيات داخليا أو فيما بينها، في مواقف قصصية تصل أحيانا حد الرسم الكاريكاتوري الهازل.

4- السخرية بدرجات متفاوتة، تتراوح بين الإمتاع والترويح عن النفس والإفادة.

5- اللغة البسيطة المفعمة بالحركة والحيوية والبعيدة عن التعقيد والمجاز والتلميح.

6- وصف المكان والزمان الذين تدور فيهما الحوادث.

وعموما فإن السرد القصصي بكل هذه العناصر مكون جوهري في النادرة مهما كان اتجاه الكاتب سواء انصب على الحدث والحركة أم على الشخصيات، قد يتجه في بعضها نحو الإيجاز والتركيز والاقتصاد في القول كما هي الحال في النوادر الموجزة، وقد يتجه نحو الإسهاب وبسط القول والتفصيل في النوادر الممتدة[20].

– بنية النوادر الموجزة:

تتخذ معظم النوادر الموجزة أساليب تقربها إلى النصوص السردية الموجزة، فغالبا ما يكون التركيز والإيجاز سببا في جذب المتلقي الذي تكفيه اللمحة والإشارة، وعاملا مساعدا على حفظ هذه النوادر وسرعة سيرورتها وانتقالها بين الناس مشافهة في أغلب الأحوال، ومن أهم خصائص هذه النوادر:

1- بساطة اللغة وعفويتها وبعدها عن التكلف والصنعة باستثناء بعض النوادر التي تتخذ من الإغراب وسيلة إضحاك. نمثل لها بنادرة التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة/ الليلة الثامنة عشر: "كان محمد بن الحسن الجرجاني متقعرا في كلامه، فدخل الحمام يوما، فقال للقيم: أين الجلدة التي تسلخ بها الضويطة من الإخفيق؟ قال: فصفع القيم قفاه بجلدة النورة وخرج هاربا"[21]. في النادرة بعض الدعابة والمفاجأة والسخرية، وفيها نقد مبطن يفهم من السياق يوجهه التوحيدي إلى بعض علماء اللغة المتنطعين.

2- وحدة الحدث وبساطته وعدم تشعبه: فجل النوادر تتمركز حول حدث واحد بسيط يأخذ كل اهتمام السارد وانتباه المتلقي.

3- الإيجاز فهي تدور حول حدث واحد وشخصية واحدة حتى توشك الملامح الحكائية أن تضمحل، فكل "جملة سردية في النادرة تحمل على الإيقاع السريع لحكاية لا تكاد تبتدىء إلا لكي تنتهي"[22]، كقول التوحيدي في البصائر والذخائر: "وقع في بعض الثغور نفير، فخرج رجل من أهلها ومعه قوس بلا نشاب، فقيل له: أين النشاب؟ فقال: يجيء إلينا الساعة من عند العدو، قالوا: فإن لم يجيء، قال: فلا يكون بيننا وبينهم حرب"[23]. ومنها قوله: "دعاني الكلبي يوما فأجلسني في بيت خيش على فرش ميساني وأطعمني فجيلة ثم قال في حديثه: لما مات أبي ندم أمير المؤمنين أشد ندامة في الدنيا. قلت: أكان نديمه؟

قال: لا، قلت: أفجليسه؟ قال: لا، قلت أفمات حتف أنفه؟ قال نعم. قلت فما سبب ندامة أمير المؤمنين؟ قال: كذا أخبرني سعيد غلامنا"[24]. وجاء في الإمتاع والمؤانسة : "أكل أعرابي من بني عذرة مع معاوية، فجرف ما بين يدي معاوية، ثم مد يده هاهنا وهاهنا، ثم رأى بين يدي معاوية ثريدة كثيرة السمن فجرها، فقال معاوية: أخرقتها لتغرق أهلها؟ فقال الأعرابي: لا ولكن سقناه لبلد ميت"[25]. فالمكون الدلالي لهذه النادرة انفتح على موضوع حساس طالما خاض فيه شعراء العصر العباسي وكتابه، ولكن هذه المرة من منظور اجتماعي ديني يفضح الطبقية الفاحشة والفقر ويعالج الظاهرة بذكاء استئناسا بما تيسر من القرآن الكريم، وببديهة قوية حاضرة وسرعة في الرد على لسان الأعرابي، فكأن هذه النوادر تقوم بدور الناقد والمحلل الاجتماعي لكثير من مظاهر الخلل وعدم التوازن بشكل فني جذاب.

4- واقعية الأحداث سواء كانت حقيقية أو تخييلية مستوحاة من الواقع، ومما يضفي عليها طابع الواقعية أكثر إسنادها إلى شخصيات تاريخية معروفة اشتهرت بالتفكه أو بخاصية ما ملفتة للانتباه كالبخل أو البله والبلادة أو التقعر في القول...

5- قلة تمركز هذه النوادر القصار على عنصري الزمان والمكان، مع غلبة عنصر السرد فيها.

- بنية النادرة الممتدة:

يمكن تسميتها بالنادرة القصصية، فهي تتسم بالإمتداد السردي وتشعب الأحداث والتطرق للجزئيات والتفاصيل الدقيقة، كما تحتفي بالمكون الزماني والمكاني وتسلط الشوء على الشخصيات، مع التدقيق في "وصف حركاتها وأفعالها وسلوكها أو استبطان دواخلها"[26]. فالسارد في النادرة الطويلة يستعين بعنصري التشويق والإثارة في سرده للأحداث، ويمعن في الوصف والتصوير الدقيق خاصة الشخصية المحورية، فيركز على حركاتها وسكناتها ومظهرها ودواخلها ومشاعرها وانفعالاتها... ولا تكتفي النوادر المطولة بشخصية واحدة محورية فتتناول إلى جانبها شخصيات ثانوية متفاوتة بحسب طبيعة النادرة.

وغالبا ما ترمي هذه النوادر الممتدة إلى الإمتاع بواسطة السرد والإقناع بواسطة الحجة، خاصة عندما يهيمن السرد التخييلي وأساليب الحجاج والإقناع. ويمكننا إجمال أهم خصائصها في النقاط الأتية:

1- تشعب الأحداث وترابطها وتسلسلها وامتداد السرد القصصي فيها وخوضه في التفاصيل والجزئيات.

2- الاعتماد على الحبكة القصصية التي تعتمد عنصر الإثارة والتشويق.

3- التركيز على وصف الشخصيات الغريبة والشاذة ورصد سلوكاتها وأقوالها اللافتة لانتباه المتلقي والمثيرة لدهشته وتعجبه، وبالتالي الساحبة له إلى حسن المتابعة والمضي حتى نهاية المشهد، وإلى جانب انتقاء بعض الشخصيات المعروفة وتضخيم أشهر ما امتازت به للإضحاك والتعليم، فهناك الكثير من الشخصيات غير النمطية والمغمورة وغير المعروفة أصلا، فهي متنوعة فيها الرجال والنساء والغلمان والجواري والأعراب وأهل الحضر، وغالبا ما تقدهم الصياغة السردية نكرات.

4- الحضور المعتدل لعنصري المكان والزمان، مع غلبة عنصر الحركة والحدث.

5- البنية القصصية المكتملة فهي أشبه بالقصة القص، فيها مقدمة عادة ما تعرف بالشخصية الرئيسية، ومتن يتمحور حول الحدث الرئيسي والشخصية المحورية وما يتفرع حوله من أحداث، وخاتمة للعبرة أو التعليم ...لا تتجاوز الجملة الواحدة والجملتين.

6- اللجوء أحيانا إلى شخصيات غير بشرية: حيوانية خاصة في النوادر التي تتناول القضايا السياسية وأمور السلطان، وغالبا ما يحذف فيها عمدا عنصري الزمان والمكان للتعمية عن المقصود. جاء في البصائر والذخائر: نظر ثعلب إلى جمل يعدو، فقال ما وراءك؟ قال: جعلت فداك، سخرت البغال والحمير، فقال: وما أنت والحمير والبغال؟ فقال: أخاف جور السلطان"[27].

7- الاختفاء خلف شخصيات غير مكتملة عقليا كالمجانين والمغفلين والحمقى بغرض الانتقاد والسخرية من الجهات الفاعلة في السلطات السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية، فكأنها تريد كسر حاجز الممنوع مطلقا، ولفت انتباه القائمين على هذه الهيئات لإصلاح أنفسهم وتدارك الخلل، فقد اقتنصت النوادر القديمة أشد اللحظات اعوجاجا وأكثر المواقف تأزما.

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور